

عظماء قهروا اليأس

مُحَمَّدٌ كَرِيمٌ

يوسف الحمادي



Y

962

9

K96

ابن الإسكندرية وشهيد الوطنية

السيد محمد كريم

بقلم
يوسف الحمادى

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه



(١)

مولده

لم يُعَنَّ تاريخُ مصرَ بطفولته ، ولم يحدّد لنا سنّة مولده ، ولكن صورة الغلاف تهدي إلى تقدير سنّه .. تأمّل فيها . إنها صورة ابن من أبناء الإسكندرية ، ورائد من رواد الكفاح المصري في العصر الحديث ، ولهذه الصورة قصة يعرفها هذا العصر ، ويذكرها الدارسون لأحداثه ونضاله ..

في الثالث من يولييه سنة ١٧٩٨ م فوجئت الإسكندرية بحملة حربية ضخمة ، نزلت بأرضها ، وعلى رأس هذه الحملة الطاغية الفرنسيّ الجبار « نابليون بونابرت » ، يريد السيطرة على هذا الثغر ، والانطلاق منه إلى السيطرة على مصر كلّها ، ثم على ما يحلو له بعد ذلك من أراض وبلاد .

وكان « نابليون » يقدّر أن الإسكندرية ستبادر بالخضوع له ، وتسليم مفاتيحها إليه ، بعد أن رأت جيوشه تكتسح بلدان أوربة ، وترفع راية فرنسا عليها .. ولكن ابن الإسكندرية ورائدها أخلف تقدير « نابليون » وظنونه ، فألهب الحماسة في نفوس أنبيائها ، فهبوا للقاء الطاغية ، يحاربونه بكل ما يستطيعون .. بالمدافع القديمة ، والبنادق ، والسيوف ، والخناجير ، والسكاكين ، والعصي ، والحجارة ، وبغير ذلك مما وصلت إليه أيديهم ، ولم يلقوا أسلحتهم إلا بعد أن عجزوا عن الاستمرار في المقاومة ، وعرفوا أنها صائرة إلى ضياع .

وكان البطل المناضل يعرف مدى الخطر الذي عرض نفسه له بهذه المقاومة العنيدة ، ويدرك أنه إن وقع في يد « نابليون » فسوف يقتله ،

وَيُمَثِّلُ بِهِ (١) ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يُرْضَىٰ بِنُضَالِهِ نَفْسَهُ وَوَطَنَهُ وَدِينَهُ ، وَقُدِّرَ لَهُ أَنَّهُ يَقِفُ بِهِ مَوْقِفَ الْأَبْطَالِ الشُّرَفَاءِ ... أَمَّا « نَابليون » فَقَدْ كَتَمَ غَيْظَهُ مِنْ هَذَا الْمَصْرِيِّ الْبَظْلِ ، وَتَنَاسَىٰ مَا لَقِيَ عَلَىٰ يَدِهِ مِنْ خَسَائِرَ فِي الْأَرْوَاحِ وَالْأَمْوَالِ وَالسَّلَاحِ ، وَرَأَىٰ أَنْ يَعَامَلَهُ مَعَامَلَةً لَيِّنَةً ؛ لَعَلَّهُ يَنْجَحُ فِي أَنْ يَطْوِيَهُ فِي جَيْبِهِ ، وَيَشْتَرِي ضَمِيرَهُ ، فَيَسْكُتَ عَنْ اِحْتِلَالِ الْفَرَنْسِيِّينَ لِبِلَادِهِ ، وَلَا يَشِيرَ أَهْلَهَا عَلَيْهِمْ .. دَعَا « نَابليون » بَعْدَ أَنْ انْتَصَرَ عَلَيْهِ وَعَلَى الْمَحَارِبِينَ مَعَهُ ، وَقَالَ لَهُ فِي جَمْعٍ مِنْ كِبَرَاءِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَوُجْهَائِهَا :

« لَقَدْ أَخَذْتُكَ وَالسَّلَاحُ فِي يَدِكَ ، وَكَانَ لِي أَنْ أَعَامَلَكَ مَعَامَلَةَ الْأَسِيرِ ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبَسَلْتَ (٢) فِي الدِّفَاعِ وَالشُّجَاعَةِ ، وَلَمَّا كُنْتُ أَعُدُّ الشُّجَاعَةَ عَنَصْرًا لَا يَنْفَصِلُ عَنِ الشَّرَفِ فَإِنَّهُ لَا يَسْغُنِي إِلَّا أَنْ أُعِيدَ إِلَيْكَ سِلَاحَكَ ، وَأَمْثُلُ أَنْ تَبْدِيَ لِلْجُمْهُورِيَّةِ الْفَرَنْسِيَّةِ مِنَ الْإِخْلَاصِ مَا كُنْتُ تَبْدِيهِ لِلْحُكُومَةِ رَدِيئَةً ، وَيَعْنِي بِهَا حُكُومَةُ الْمَمَالِكِ فِي مِصْرَ .

وَنَادَىٰ بِأَحَدِ الْمَصُورِينَ الْمَصَاحِبِينَ لِلْحَمَلَةِ ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَرَسُمَ صُورَةً لِهَذَا الْمَنَاضِلِ تَقْدِيرًا لِبَطُولَتِهِ وَشُجَاعَتِهِ ، وَتَحْلِيدًا لَذِكْرِي فَتَحَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ ، مَدِينَتَهُ الْعَرِيقَةَ الْعَظِيمَةَ .

وَرُسِمَتِ الصُّورَةُ ، وَحِفْظُهَا تَارِيخُ مِصْرَ وَالْحَمَلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ عَلَيْهَا ، وَبَقِيَتْ لِتَذَكُرَ بِهِذِهِ الْحَمَلَةَ ، وَلِتَدُلَّ عَلَى الْكَثِيرِ مِنْ مَلَامِجِ هَذَا الْبَظْلِ ، وَقَسَمَاتِهِ ، وَسُنَّتِهِ ؛ فَإِنَّكَ إِذَا أَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِيهَا (٣) وَجَدْتَهَا تَصَوُّرُ رَجُلًا ، مَفْتُوحَ الْجَبْهَةِ ، وَاسِعَ الْعَيْنَيْنِ ، أَشْمُ الْأَنْفِ (٤) ، بَارِزَ عِظَامِ الْخَدَّيْنِ ، أَشْدَقُ (٥) ، فِي نَظَرَاتِهِ

(١) يُمَثِّلُ بِهِ : يَعَذِّبُهُ عَذَابًا شَدِيدًا لِيَكُونَ مِثْلًا لْغَيْرِهِ .

(٢) اسْتَبَسَلْتَ : ثَبَّتْ عَلَى مَوْقِفِكَ الْجَرَىءِ . (٣) أَنْعَمْتَ النَّظَرَ فِيهِ : دَقَّقْتَ .

(٤) أَشْمُ الْأَنْفِ : الشَّمَمُ ارْتِفَاعٌ فِي قَصْبَةِ الْأَنْفِ ، وَكَانَ مِنْ عِلَامَاتِ الشُّهَامَةِ وَالْمَرْوَةِ .

(٥) أَشْدَقُ : وَاسِعَ الْفَمِ .

ذكاءً ودهاءً وعمقاً ، وفي ملامحه هدوءٌ مع نزوع إلى التحدى والإصرار ،
ولطلعتِه هبةٌ شديدة ، ووقارٌ يُحسُّه كل ناظرٍ إلى وجهه .

فإذا أحب المتأمل أن يعرف من الصورة سنَّ صاحبها وجدَّ له لحيَةٌ
مسترسلةٌ ، قد اشتعلَ الشيبُ فيها ، وكادَ يذهبُ بما كان لها من سوادٍ ، فلم يبقَ
بها إلا بعضٌ من خُصَلٍ قليلةٍ في طريقها إلى الاشتعال .

ووجدَ أن ملامحَه وبياضَ لحيته وشاربه تدلُّ أوضح دلالةٍ على أنه في نحو
الستين من عمره ، وقد يزيدُ على ذلك قليلاً أو ينقصُ قليلاً ، كما تدلُّ على هذه
السن مناصبه وأعماله التي أسندت إليه ؛ فهو حاكمُ الإسكندرية ، ورئيسُ
الديوانِ والجمارك بها ، والمشرِفُ على ثغرها وعلى ثغرٍ رشيد .. ومثل هذه
الوظائف والأعمال لا تسند عادةً إلا لرجلٍ في مثل السن التي قدَّرت له .
وبذلك يكونُ مولده في منتصفِ العقْدِ الرابع من القرنِ الثامن عشر ، أى في
نحو سنة ١٧٣٥ م ، وهو تاريخٌ تقريبيٌّ ، لا يمكنُ القطعُ به (١) ، ولكن يمكن
ترجيحُه على ما ذهب إليه بعض الباحثين من أنه وُلِدَ بعد ذلك بسنين .

فمن هذا البطل ؟

إنه هو السيدُ محمد كُرَيْمٌ ، ابنُ الإسكندرية ، وزعيمُها الشعبيُّ الشجاعُ
الذى وقفَ في وجهِ « نابليون » ، وقاومه ، ومات شهيداً على يده ، فكان أولُ
الزعماءِ الشهداءِ في تاريخِ مصرَ الحديثِ

(١) القطع به : القول به قولاً جازماً مؤكداً .

(٢)

تربية أبيه له

وُلِدَ محمد كَرِيمٌ ، كما تقدَّم ، سنة ١٧٣٥ ، أو قريباً منها .
وكان والده رجلاً طيباً ، ذكياً ، أميناً في عمله ، له حظٌّ من الصلاح ،
وطَرَفٌ من الثَّقافةِ الدينية ؛ ولهذا درج معارفه ومن يتعاملون معه على تلقيبه
بلقب « الشيخ » .

وكان هذا الشيخ من قباني « الثغر » ، ومن المعروفين بين أرباب (١) هذه
المهنة به ، ولم تكن القبانة فيه من المهن الخاملة أو المغمورة (٢) ؛ لأنه كان
يموج (٣) بالتجار ، وتشتدُّ فيه حركة التبادل والبيع والشراء ، فتشتدُّ بذلك
حاجته إلى قبانين ، يقدرون للناس أوزان سلعهم ، وأثمائها ، وما يتصل بها من
رسوم للحكومة ؛ فإذا أجاد القبان ذلك ، وعُرفَ بمثل ما عُرفَ به الشيخ
« كَرِيمٌ » من خبرة ودقة فيه ، ومن عدالة وحسن خُلُقٍ أحبه الناس وفضلوه على
غيره ، وإذا جمع إلى ما تقدم ما امتاز به هذا الشيخ من ذكاء ، ولباقة ، وحس
اجتماعي أحبه الحكام أيضاً ، واجتذب عطفهم ورعايتهم .. وهكذا كان
الشيخ « كَرِيمٌ » في صفاته وخبرته ، وفي حبِّ الناس والحكام له . وعاش الرجل
عيشةً مستورةً ميسورةً ، يُظللها الرضا ، وتشيعُ فيها المسرة والطُمأنينة ، ولكن
شيئاً واحداً كان يكدُّ عليه صفو حياته ، هو أنه كان صاحبَ بناتٍ ، ولم يهب
له القدرُ ابناً يُشبعُ رغبته في الذكور ، ويجدُ فيه البهجة والعون على مشاق العيش
ومتاعه ..

(٢) المغمورة : المجهولة الخاملة .

(١) أرباب : أصحاب .

(٣) يموج : يزدهم .

وكانت زوجته مثله في هذا الشعور ؛ فقد عاشت تضرعُ معه إلى الله تعالى أن يَمُنَّ عليهما بابن صالح ، تستقرُّ به عيشتهما ، ويجدان فيه طعمَ الهناءة ، ونورَ الأمل ... واستجاب الله تعالى دعاءَ الوالدين ، فمنَّ عليهما بطفليهما « محمد » .. وجاء هذا الطفلُ كما يأملان ، وفوق ما يأملان : خَلَقَ سَوِيًّا^(١) ، وبناءً مكتمل ، ووجهٌ مشرقٌ وسيمٌ ، ونظراتٌ صافيةٌ ، بها حدةٌ وفيها ذكاءٌ وعمقٌ ، وملامحٌ توحى بأن هذا الوليدَ سيكونُ له شأنٌ عظيمٌ في مستقبله .

ونما الوليدُ في رِحابِ أبويه ، ودرَجٍ ، ومشى ، وبلغَ سنَّ التعلم ، فدفع به أبوه إلى الكتاب ؛ ليتعلَّم القراءة ، والكتابة ، وأولياتِ الحساب ، ويحفظَ ما يستطيع من أجزاءِ القرآن الكريم .. وكان الطفلُ ذكيًا قويًا مُجدِّدًا ، أَلَمَّ بأكثر مما يُلَمُّ به زملاؤه في الكتاب ، وحصلَ قدرًا أكبرَ مما يُحصلون .

وشجعت نتائجه في الكتاب والدَّه على أن يستمرَّ في تعليمه ، ويُعدَّه لدخول المعاهد الأزهرية ، ومضى الوالدُ فيما عزم عليه ، فأعدَّه لها ، وألحقه بها ، فظفرَ بقسطٍ من علومها ومعارفها .

وبينا تمضي الأيامُ بهذه الأسرة وهي راضيةٌ هانئةٌ إذا بالدنيا تديرُ لها ظهرها ، وتصيدها صدمةٌ قويةٌ ، تُصيبُها بدوارٍ عنيف ... مات الشيخ « كريم » ، وترك ابنه الناشئَ بغيرِ مهنةٍ ولا وظيفة ، كما خلفَ أسرته ذاتَ العددِ بغيرِ ثروةٍ من مالٍ أو عقارٍ يعتدُّ به .

وكان على الابن أن يقطعَ تعليمه ، ويبقى نفسه لكي يحملَ عبءَ هذه الأسرة ... ولم يتأخر ، ولكنه وجدَ طريقَ الكسبِ صعباً ، وأبوابه ونوافذه مغلقةً أو كالمغلقة ... وأحسنُ أصدقاء والده ذلك ، وكانوا يعرفون صلته بعظيم الإسكندرية (ذى الوزارتين فيها) ، فرفعوا إليه مأساةَ أسرة الشيخ « كريم » ،

(١) سَوِيًّا : مكتمل .

فرق لها ، وأشفقَ بها ، وأمر أن يلحق الابنُ بأحد محالِّ القبانة التابعة له ، ليتدرب فيه ، ويصبحَ قباناً كأبيه الشيخ « كريم » .

وبهذا العمل بدأ محمد كريم أولى خطواته على طريق الحياة العملية ، وأصبح عماد الأسرة وعائلتها^(١) ، وكان قد أفاد من والده الكثير قبل أن يفارق الحياة ، ويترك الأسرة لعواصفها .

أفاد من ثقافة أبيه وخبرته بمهنة القبانة ، فشق طريقه فيها بنجاح .
صحَّب أباه طفلاً وصبيّاً في غدوّه إلى عمله ورواحه منه ، فعرف أصحابه ومن يتعاملون معه ، واستمعَ منهم ، وتحدّث إليهم ، وناقشَهم فيما يتناولون من شؤون ، ووجدَ منهم إعجاباً بلباقته وفطنته ، وتقبُّلاً لنقده وتعليقاته البارعة الذكية ، فساعده ذلك على أن يكونَ الطفلَ الاجتماعيّ حين كان طفلاً ، والناشئَ الاجتماعيّ حين جاوزَ مرحلة الطفولة .

أُتيحَ له أن يعرفَ ، من طريق هذا الوالد ، الكثيرَ عن التيارات السياسية في مصر ؛ لأنه كان يعملُ مع التجار ، ويعيشُ بينهم ؛ وكان هؤلاء التجارُ إذا فرغوا من عملهم اندفعوا في ثروة سياسية متصلة ، واندفع أبوه يشاركهم فيها ، وكأنهم حلبة^(٢) صراع كلامي لا يهدأ ولا ينتهى ... وكانوا في مناقشتهم وجدلهم يختلفون ما يختلفون ، ولكنهم يتفقون على شيء واحد ، هو أن سياسة البلاد تمثّل لعبة الفريسة والوحش ، والفريسة دائماً هي مصر ، أما الوحش فهو الوالى العثمانيّ الذي يعينه الخليفة في تركيا ليدير شؤون مصر ، فيحكم أبناءها بالسيف ، ويمتصّ دمهم بالضرائب ؛ ليُشبعَ نهمه ، ويُرضيَ مطامع الخليفة الذي لا يقنع ، أو الوحش هو من يتغلّب من المماليك على الوالى العثمانيّ ،

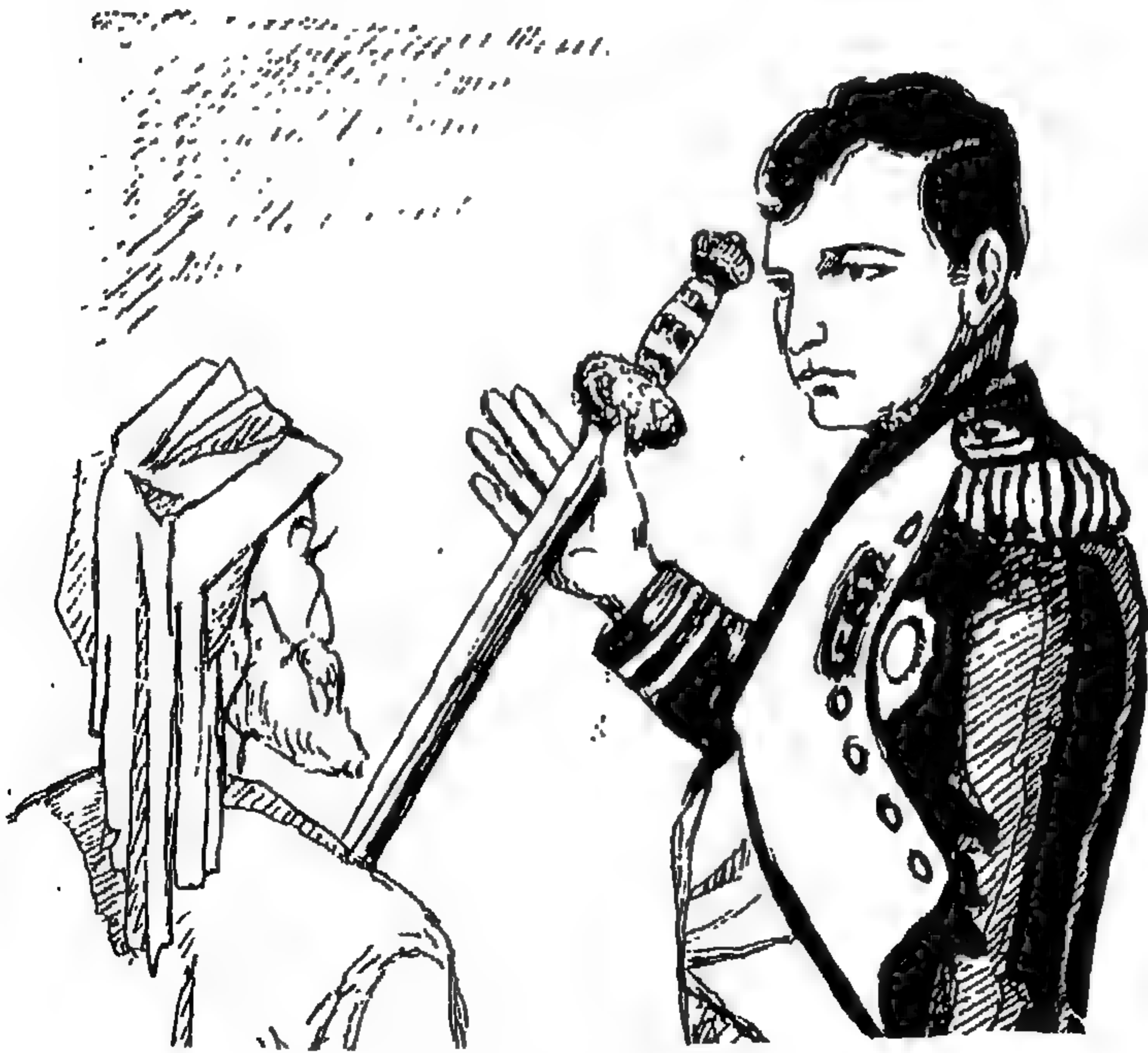
(١) عائلتها : من يسعى على رزقها .

(٢) حلبة صراع : فرسان صراع .

فيشاركه في الحكم ، أو ينتزعه من يده ، ثم يتجه إلى المصريين المسحوقين^(١) ، فيستنزف أموالهم ؛ لينعم بها هو وبطانة السوء التي تعمل معه .

كما أُتيح لهذا الابن أيضاً أن يعرف ، من أبيه ، غير قليل ، عن الرسوم ، والضرائب ، وما يُفرض على الشعب منها ، وما يقاسى بسببها من عذاب ، وتشريد ، ومعاناة في أعماق السجون .

هكذا كان محمد كريم حين تركه أبوه ... شاب قد جاوز العشرين ، له خبرته بمهنة القبالة ، وله شيء من الثقافة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وحظ من المعارف الدينية واللغوية ، فوق ما له من لباقة^(٢) ، ورهافة حس ، وخفة روح ، وقوة جاذبية تحببه إلى الناس ، وتحبهم إليه .



نايليون يسلم السيف للسيد محمد كريم
في تقدير واحترام

(١) المسحوقين : المطحونين .

(٢) لباقة : الحذق والبراعة .

(٣)

كفاح محمد كريم في سبيل العيش بعد موت أبيه

أحسُّ محمد كريم الشاب الناشئ أنه أصبح ، بعد موت أبيه ، وحيداً ، وكانت الصدمة قاسية ، واليأسُ معها عنيفاً يهدد كيان الأسرة المنكوبة ، ولكن الشاب القوي صمم أن يقهر هذا اليأس ، وأن يشق طريق العيش لها بين الأشواك والصخور .

وكان مدهشاً وعجيباً في خطواته ! لقد أثبت أنه جدير حقاً بالعبء الذي يحمله ، والرسالة التي يواجهها ! كان صبياً قبانٍ بادئاً في هذه المهنة ، فأصبح بعد قليل قباناً مستقلاً .

نشأ في عددٍ محدود من الحرفاء^(١) ، ثم صار في جمع غفير^(٢) من التجار وأصحاب الحاجات الذين يتعاملون معه ويتهافون عليه .. بدأ بدكان قبانية واحد ، ثم تحول الدكانُ دكاكينَ والمحلُّ محالً .. رآه الناس يزُنُّ بيده ويياشر كل صغيرة وكبيرة بنفسه ، ثم رأوه وقد اتسع عمله ، وأصبح له صبيانٌ ومساعدون ، يعملون تحت إمرته ، ويتصرفون بتوجيهه وتعليمه .

لم يكن كسبه شيئاً يذكر ، ثم نما ، واتسع لمطالبه ومطالب أسرته وقصَّاده . لم يكن اسمه معروفاً في غير حيّه ، ثم ذاع وتخطى حدوده إلى مختلف أحياء الإسكندرية ؛ حتى عرفه أكثر الناس فيها ، وصار من القبانين المعدودين بها ،

(١) الحرفاء من يتعاملون معه . (٢) غفير : كثير .

وحتى لقبوه بلقب « السيد » ، ودرجوا على مخاطبته باسم السيد محمد كريم ، مع أن مثل هذا اللقب خاص بالأشراف وذوى النسب الرفيع .

ولم يظفر السيد محمد كريم بهذه المكائنة بين أهل الإسكندرية عفواً ، أو على غير أساس ودون مبرر ، وإنما كان لها ثمنها من خلقه وطبيعته ومعاناته .. كان لبقاً يستهوى أصحابه بحديثه ومعاملته ، مثقفاً يجذب إليه المثقفين بما يتناول من معارف وطرائف^(١) ، مترناً عادلاً ، يطمئن المتعاملون إلى موازينه وحساباته فيتهافتون عليه ، باراً رحيماً يُشفقُ غايةَ الإشفاق بالضعفاء ، ويعطفُ كلَّ العطف على البائسين ، متميزاً في قوة شخصيته ، يهابه المحتسبون^(٢) ، وينزلون على كلمته في الرفق بالتجار ، والشفقة بدافعي الضرائب ، والرحمة بسائر المواطنين ؛ ولهذا ظفر بالحب والتقدير من أبناء الإسكندرية ورجال الحكم فيها .

ومرت السنون ، وتتابعت الأحداث في مصر ، تنتقل بالمصريين من فتنة للمماليك إلى فتنة أقسى ، ومن مؤامرة إلى مؤامرة أشد ، وهو يعيش في غمار^(٣) هذه الفتن التي لم تخلص الإسكندرية من آثارها ... شهد الصراع بين « راقم » باشا الوالى العثماني المتغطرس^(٤) ، وعلى بك كبير المماليك الذى وقف في وجه هذا الوالى ، وعزله ، وحارب الخلافة العثمانية ، وخاض^(٥) معها عدة معارك انتصر فيها سنة ١٧٦٨ ، فتألق^(٦) بذلك نجمه ، وذاع صيته ، وأصبحت له الكلمة النافذة في مصر ، ثم تقلبت به الدنيا ، وتنكرت له ، وكانت نهايته على يد مملوك آخر قوى عنيد هو محمد أبو الذهب الذى هزمه ، وقبض عليه ، ثم أسره

(٢) المحتسبون : مراقبو الأسواق .

(١) طرائف : معلومات جديدة .

(٤) المتغطرس : التكبر المتجبر .

(٣) غمار : وسط .

(٦) تألق : لمع .

(٥) خاض : دخل .

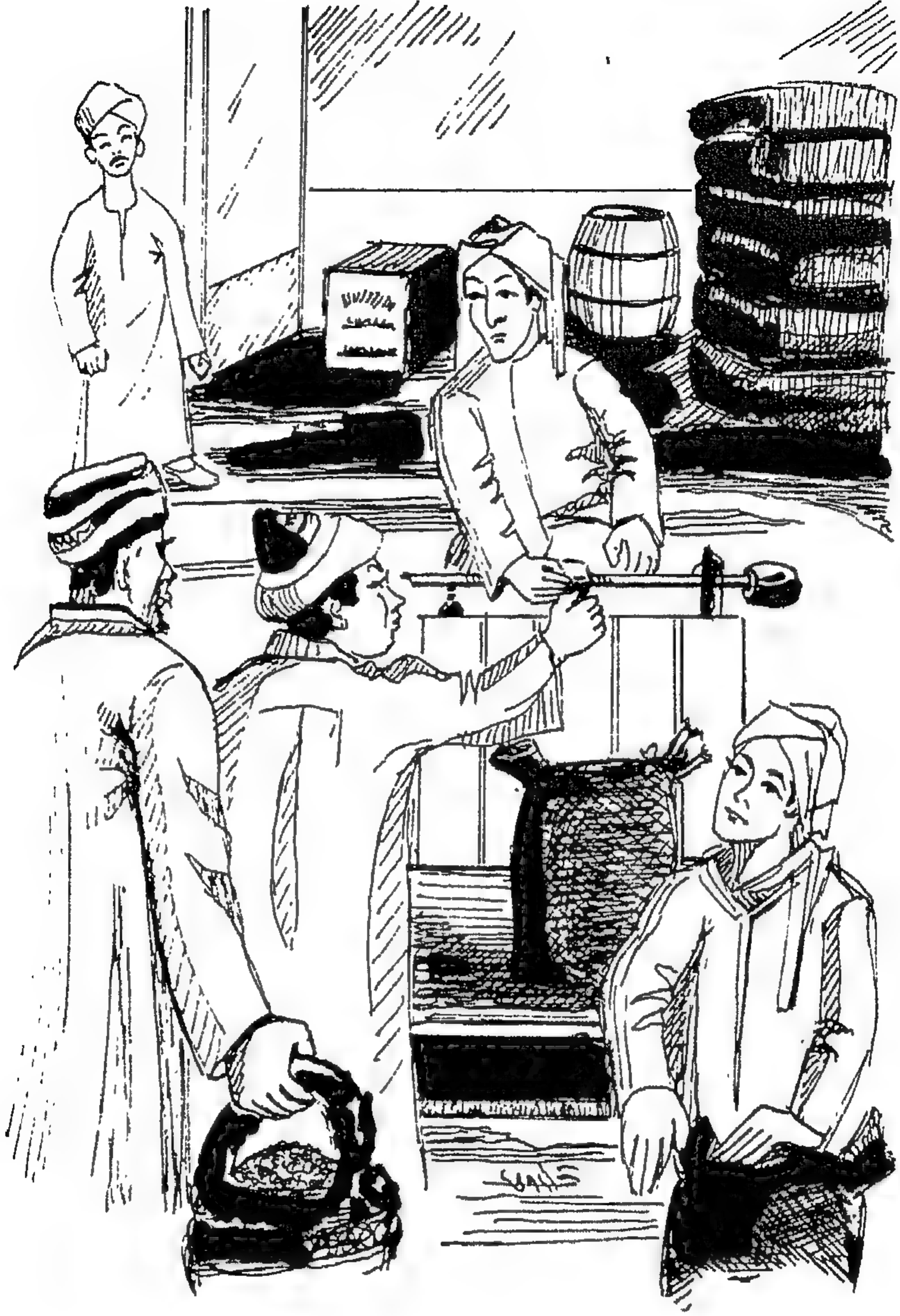
في خيمة ، عذبه فيها أقسى العذاب ، حتى خرج منها على محفة ، ليلقى حتفه في داره بالأزبكية .

شهد السيد محمد كريم هذا الصراع ، وعاصر بعده حروباً استمرت أكثر من عشرين سنة بين رأسين من رعوس الممالك ، كانا يتنازعا على مشيخة البلاد ، فيتفقا حيناً ، ويختلفان في أكثر الأحيان ، وهما مراد بك ، وإبراهيم بك .

وفي أثناء هذا الصراع عمت الفوضى أنحاء البلاد ، وشاع النهب والسلب في الإسكندرية وغيرها ، وحرص كل من هذين المملوكين على أن يغتصب ما يستطيع من أموال الشعب الفقير المسحوق ، ويعيش على عرق المحرومين ، وكدهم الضائع . فرع السيد محمد كريم ، وقال في نفسه : « وماذا بعد ؟ ماذا جنت الإسكندرية حتى تعيش ضحية الصراع بين إبراهيم بك ومراد بك ؟ أليس من حقها على أن تعمل لإنقاذها مما تعاني من فساد وخراب بسبب هذا الدمار ؟ ، ومن أولى بذلك مني وقد منحتني من حبها ما أستحق وفوق ما أستحق ؟ سأبادر ! سأنهض بحقها على وواجبي نحوها ! » .

ولم يطل تفكير السيد محمد كريم ؛ فقد كان مراد بك يبحث عن رجل قوى الشخصية في الإسكندرية ، محبوب من أهلها ، قادر على إشاعة الأمن فيها ، وجمع الضرائب منها في غير سُخْط ولا ضجة ، ولم يجد لذلك أفضل من السيد محمد كريم ، فبادر بتعيينه حاكماً لها ، ومديراً لجماركها ، ومشرفاً على ثغرها وعلى ثغر رشيد ، وكان ذلك مع العقد الأخير من القرن الثامن عشر .

وتولى الحاكم الجديد سلطاته ، فسعد بمدينته ، وسعدت به مدينته ، وكانت رحمة لها ، ومظلة عليها ، في وقت ضاعت فيه الرحمة ، وتعرضت مدن القطر وقراه للهبب الحروب ونزيف الفتن والثورات والمؤامرات .



الشاب محمد كريم في أحد المحال الخاصة بالقبانة ،
يزن للناس وهم يتهاقون عليه

(محمد كريم)

(٤)

قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر

كان السيد محمد كريم مثلاً عالياً في عمله الجديد ... رسم لنفسه أهدافاً التزمها وعمل على تحقيقها ، وتمثل هذه الأهداف في رفع المظالم عن الناس ، وتوفير الخدمات لهم ، ونشر الأمن بينهم .. في وقت كانت مصر تتعرض فيه لعواصف عاتية من الصراع بين الخلافة والمماليك ، وبين المماليك بعضهم مع بعضهم ، وبينهم وبين الشعب المستعبد الذي يعمل ويكد ؛ ليجنى الحكام المستبدون ثمرة عمله ، ويدعو^(١) للفقر والجوع والحرمان .

ومما أعانه على تحقيق أهدافه أنه كان تقياً ورعاً^(٢) ، عفيف اليد ، مترفعاً غاية الترفع عن ظلم الناس ، واستغلالهم ، والنيل من أموالهم بغير حق ، وكان بهم رحيماً رفيقاً ، ولكن في حكمة وحزم ؛ فهو يأخذ منهم الضرائب والرسوم المراد بك ، ولكنه يراعى حالهم ، فلا يكلفهم منها ما لا طاقة لهم به ، وهو يحافظ على المال العام ، ولكنه ينفق منه ما يصلح من شئونهم ، ويعينهم على الحياة الراضية الكريمة .

وارتاح السيد محمد كريم لهذا الجهد الكبير الذي أرضى به نفسه ، وأقنع به المماليك ، ووفى به للإسكندرية حقها وحقوق أبنائها عليه ... وظهر أثر ذلك في استقرارها وسعادتها بالحكم الجديد ... ولكن حدثت المفاجأة .

ظهر نابليون بونابرت في فرنسا ، وكان قائداً طموحاً ، مزهواً بنفسه^(٣) ، مغروراً بقوته ، يريد أن يجعل من فرنسا أعظم دولة على وجه الأرض ، فاندفع

(١) يدعو : يتركوه . (٢) ورعاً : تقياً . (٣) مزهواً بنفسه : مغروراً بها .

بين دول أوربة كالسيل ، يدخل الواحدة منها ، فيكتسحها ، ويرفع عليها الراية الفرنسية ، ثم ينتقل منها إلى غيرها وغيرها ، فلا تقف في وجهه جبال ، أو أنهار ، أو جيوش .

ونظر فوجد غير قليل من هذه الدول في قبضته ، فازداد طموحاً وغروراً ، وسرّح به عقله ، يحلم حلماً وردياً ساحراً وجديداً . لم يحلم هذه المرة بدولة من دول أوربة ، ولكن طار به حلمه إلى بعيد بعيد .. أحب في هذه المرة أن يملك مفتاح الشرق ، ويسيطر^(١) على طريق الهند ، ويحول البحر المتوسط بحيرة فرنسية يتحكم فيها ، وفيما يمر على ظهرها من سفن وبوارج^(٢) ؛ وذلك بامتلاك أغلى جوهرة في حوض هذا البحر ، وهي مصر التي تهيب له أعظم فرصة لضرب إنجلترا عدوته اللدود^(٣) . يقول عن مصر في هذا الحلم :

« سيكون لنا فيها الطريق المفضي إلى الهند ، ويسهل علينا أن ننشئ مستعمرة من أجمل مستعمرات العالم ، وإذا أردنا أن نهجم إنجلترا فلنهاجمها من مصر » .

وأحب نابليون أن يجعل حلمه حقيقة ، فأقنع حكومته باحتلالها ، وجرد لذلك جيشاً من ستة وثلاثين ألف جندي ، تحرك به أسطولُه يشق البحر المتوسط ، من موانئ فرنسا إلى الشرق ، في مايو سنة ١٧٩٨

وكان نابليون يعتقد أن هذا البحر مفتوح أمامه ، وأن الطريق فوق أمواجه ممهد له ، وأن حملته التي يقودها سير لا يعرف أحد وجهته ولا هدفه ، ولكن « نلسن » قائد الأسطول الإنجليزي كان يتلقط أخباره ، فلم يغب عنه قصده ، فسبقه ببعض سفنه إلى الإسكندرية ، وألقى مراسيه على مسافة من شواطئها ،

(١) يسيطر : يفرض سلطانه .

(٢) بوارج : سفن ضخمة .

(٣) اللدود : الشديدة العداوة .

ثم بعث بعشرة من ضباطه على ظهر زورق حربي إليها ؛ ليكونوا رسلاً منه إلى حاكمها ..

والتقى هؤلاء بالسيد محمد كريم ، فسألهم :

— ما جاء بكم إلى هنا !

أجاب كبيرهم :

— جئنا ننصح ونحذر !!

قال الحاكم :

— بماذا تنصحون ؟ وممَّ تُحذرون ؟

رد الضابط :

— إن جيش نابليون قادم إليكم ، ونريد أن ندافع عنكم .

فكر الحاكم ملياً (١) ، ثم رأى أنه إن سمح لهم بنزول المدينة أعطى إنجلترا حقاً ليس لها ، في سبيل مجهول لا يدري ماذا يكون من أمره ، فأقبل بوجهه عليهم ، وقال لهم :

— شكراً ، لا نريد منكم أن تنزلوا بمدینتنا ، ولا أن تدافعوا عنا !

قال الضابط :

— إذن فدعونا نقف على مقربة من الشاطئ ، فنتزود من المدينة بالمؤن

والماء ، فإذا هجم عليكم نابليون تصدّينا (٢) له !

أجاب الحاكم :

— هذه بلادنا ، وليس لكم ولا لغيركم علينا من سبيل ، فاذهبوا عنا .

رجع الضباط إلى « نلسون » ، فوجد أن أمله في خديعة حاكم الإسكندرية

قد خاب ، وانسحب بسفينة إلى عرض (٣) البحر ... و خلا السيد محمد كريم

(١) ملياً : فترة غير قصيرة . (٢) تصدّينا له : تعرضنا له . (٣) عرض : ناحية .

إلى نفسه يفكر ، وكان يعرف الكثير عن نابليون وانتصاراته وصلّفه^(١) ، ولكنه لم يكن يتوقع منه أن يتهور ، فيزج^(٢) بجيشه في تيارات الشرق وجحيمة ... عند ذاك تنبه كريّم ، وبادر ليحصن مدينته ، غير أن أكثر جهده ضاع وسط القلاع المهذّمة ، والحصون الخربة ، والخطوط الدفاعية البالية الواهية .

ومرت أيام ، وصدق ما حذر منه « نلسون » — بلغ أسطول الفرنسيين الإسكندرية ، ونزل بين « الدخيلة » و « العجمي » ، وبادر نابليون بإرسال منشورات بالعربية إلى أهلها ، يزعم فيها أنه يخدم المصريين ، ويحبّ المسلمين وخليفَتهم ، ويقدر دينهم ، وأن كل ما يُريده هو إنقاذهم من المماليك أعدائهم ، وأعداء الخلافة ، وأعداء الفرنسيين الذين يثرون أموالهم في مصر .

لم تنخدع الإسكندرية بالمنشورات ، بل صممت هي وحاكمها على مقاومة الحملة الفرنسية ، أما نابليون فلم ينخدع ببلد كما انخدع بهذه المدينة ؛ فقد استطلع أحوالها فغره خلوتها من القلاع والمدافع والذخائر ، فتوهم أنها ستخبر راحة تحت قدميه ، مستسلمة له بدون مقاومة ، كما استسلمت له مدن أقوى وأعز منها .. وضحك ضحكات عالية ساخرة منها ومن وسائل الدفاع عنها .. ولكنها كانت ضحكات غافلة ، ما لبثت أن تبددت في الهواء .

(٢) يزج : يدفع .

(١) (١) صلّفه : زهوه .

(٥)

مقاومة الإسكندرية للحملة الفرنسية

كان السيد محمد كريم يعرف الكثير عن ضعف قلاع الإسكندرية أمام قوة نابليون ، ويعلم أن العثمانيين والمماليك أهملوا المدينة ، ولم يعملوا على تحصينها .. وكان الموقف يدعو إلى اليأس ، ولكنه لم يئس ولم يتخاذل^(١) ، بل صمم على الدفاع عنها ، وبث أعوانه فيها ، يدعوون كل قادر من أهلها إلى الجهاد في سبيلها .. وسرعان ما تحولت الإسكندرية شعلة من الحماسة ، وخليّة من العمل الجاد لرد العدوان والمعتدين .

القناصة يحتلون المواقع الآمنة التي يستطيعون منها تصيّد الأعداء . الجنود يحصنون قلاع المدينة ويتحصنون بها . الأهالي يقفون مستعدين من وراء الأسوار والمتاريس والأبواب والنوافذ بما في أيديهم من بنادق وسكاكين وعصى وحجارة . بعض الناس صعدوا إلى سطوح المنازل ، وكمثوا خلف سواترها بما لديهم من أسلحة . السيد محمد كريم أسرع بجنّده إلى قلعة « قايتباي » ، فاتخذها حصناً لدفاعه ، ومركزاً لتنظيم المقاومة عن المدينة ، ومنها أصدر أوامره إلى فرقة الفرسان معه ، وكانت أربعمائة ، بأن تناوش^(٢) الفرنسيين ؛ لتشغلهم حتى يأتيه مدد من مراد بك يعينه عليهم ، وكان قد أرسل إليه يقول : « إن العمارة التي حضّرت هذا اليوم مراكب عدة ، بما لها أول يعرف ، ولا آخر يوصف ، فبالله ورسوله أدركونا بالرجال ! » .

ونظر نابليون ، فوجد حاكم الثغر الأعزل يحاول تحصينه ، فعاد إلى سخريته

(١) يتخاذل : يتراجع : (٢) تناوش الفرنسيين : تناولهم باشتباكات خفيفة .

منه واستهزأه به ، ثم صحا من هذه السخرية في دهشة بالغة . لقد أدرك أنه أخطأ في تقديره لعظمة ابن الإسكندرية وأهلها .. فسارع إلى قواده ، فالتقى بهم ، ورسم معهم خطة احتلال المدينة ، ووزع العمل بينهم .

وتقدم ، فاعتلى ربوة « عمود السوارى » ، ونظر حوله هنا وهناك ، كأنه يقول للإسكندرية : افعل ما شئت ! إنك لن تستطيعي شيئاً ! وأصدر إشارة إلى جنوده ، فانصبَّت نيرانهم عليها من كل ناحية .

لم تنحن المدينة العريقة له^(١) ، بل وقفت شامخة ، تواجه عدوانه الظالم الغاشم بكل ما تستطيع ... بمدافع القلاع ، ورصاص القناصة ، وهجمات الفدائيين . ولكنها عجزت عن أن تدفع بها نيران نابليون وجيشه ، فحولت المقاومة إلى الشوارع والحارات والمنازل ، ونالت بها من الفرنسيين ما لم تنله بالحرب المنظمة .

وتعرض نابليون نفسه في غمار المعركة لرصاصة كادت تؤدى بحياته^(٢) ، وأصيب الجنرال « مينو » بحجر هوى^(٣) به من مكانه إلى الأرض ، وفقد الجنرال « ماس » حياته مع عدد من معاونيه ، وأزهقت^(٤) أرواح عدد من الفرنسيين يزيدون على ثلاثمائة في نحو ساعتين ، وودَّ نابليون لو سكنت المقاومة ، ولكن البطل الإسكندري أصرَّ عليها ، ولم يتراجع إلا بعد أن عجز عنها أمام قوات نابليون وأسلحته الحديثة .

وسكنت معركة العزة والكرامة ، ولكن بعد أن لقنت نابليون درساً مرّاً .. وفكر الطاغية ، فابتلع المرارة ، وتدرَّع بالصبر .. ودعا السيد محمد كريم ، فرحب به ، وأعاد إليه سلاحه ، وعامله معاملة الأبطال الشرفاء .. وظن أنه

(١) العريقة : القديمة في مجدها وتاريخها .

(٢) تؤدى بحياته : تقضى عليه .

(٣) هوى به : سقط به .

(٤) أزهقت : خرجت .

بهذه المعاملة قد استهواه^(١) ، واستطاع أن يجعل منه تابعا له ، مواليا لفرنسا وأبنائها ، ولكنه كان واهما مخدوعا ؛ فقد تظاهر السيد محمد كريم بالرضا عن هذا اللقاء ، ولكنه كان في أعماقه مصريا ثابتا على مصريته ، وإيمانه الراسخ بوطنه .

ولمح أحد رجال نابليون هذا الشعور في نظراته العميقة ، وملامح وجهه المعبرة فقال :

« لقد لاحظت في ملاح هذا الرجل الذكاء والدهاء ؛ فكأنما كان يكتُم عواطفه عنا » .

* * *

وانصرف كل من الرجلين ، بعد هذا الموقف ، إلى وجهته .
نابليون يتوهم أن السيد محمد كريم أصبح في جيئه ، وأن الإسكندرية صارت في يده ، فيسرعُ بدفن موتاه حول عمود « السواري » ، وتعزف لهم موسيقاه لحن الوداع ، ثم يوجهُ جهده لاحتلال مصر ، فيسير بنفسه على رأس فريق كبير من جيشه ورجال حملته إلى دمنهور .

والسيد محمد كريم يعمل بجِد لا يعرف اليأس ، ولكنه يتحول من النضال الجهرى إلى النضال في الخفاء ومن وراء الستار ؛ فهو يثير على نابليون علماء الإسكندرية الذين حاول خداعهم ، ويعتُ في القرى والمدن التي يمر بها هو ورجاله فدائيين يتصيدونهم ، ودعاة يدعون أهلها أن يقاطعوهم ، ويمنعوا عنهم كل مساعدة ، ويسارعُ في استعجال مراد بك للقائهم ، ولا يهدأ أو يتوقف . ونجح في حركته السرية ، واستطاع أن يُدِيق بها نابليون ورجاله أقصى المعاناة .

(١) استهواه : اجتذبه .

(٦)

نابليون ورحلة العذاب

خرج نابليون من الإسكندرية ، وهو يظن أنها أصبحت معقلاً آمناً ، يحمى ظهره ، ويمدّه بما قد يحتاج إليه من مساعدة ؛ فقد ترضى أعيانها وكبار رجال الدين بها ، وشدّهم إليه بما أعلن فيهم من أنه يقُدّس الدين الإسلامي ، ويؤمن بوحداية الله ورسالة نبيّه ، وجذبَ عامّة الناس بما قدّم لهم من وعودٍ عن إنقاذهم من ظلم المماليك ، وحكمهم الذي يقوم على السلب والنهب والاستبداد ... وأخذته النشوة^(١) وهو يسمع تصفيق الأكفّ له ، وانخداع العامة به ... ولم يترك هذه المدينة العريقة إلا بعد أن عين « كليبر » أحد رجاله الكبار حاكماً عاماً لها ، وبعد أن أعادَ إليها محافظها السيد محمد كريم ، وأقام « مينو » أحد قواده المعدودين حاكماً لرشيد . عند ذلك قال لنفسه :

« الآن يا نابليون تدعُ عروسَ البحر المتوسط ، وتبدأ رحلتك لاحتلال مصر ، مفتاح الشرق ، وملتقى القارات الثلاث ، وأرض الحضارات والآثار والتاريخ .. إن الدنيا الآن تنظرُ إليك يا نابليون حين ترفعُ رايتك على مصر .. مصرَ العظيمة التي ضيعها المماليك فأصبحت ضعيفة عاجزة ، إن رحلتك ومن معك فيها ستكونُ رحلة نزهة ، وسوف يحتلّها جنودك وهم في نشوة ورقص وقصيف^(٢) وغناء » .

* * *

(١) النشوة : الفرحة التي أسكرته ..

(٢) قصف : هو ولعب .

واندفع نابليونُ برجاله إلى دمنهور ، واندفعت الصدماتُ تواجهه وتقاطعه ، وكان من ورائها حبُّ أبناءِ مصرَ لبصر ، والحركةُ السريّةُ للزعيم الشعبيِّ الكبير السيد محمد كريم ؛ فقد كان رجاله يسبقون نابليون ؛ ليحولوا رحلته رحلةَ عذابٍ وجحيم .

ونظر نابليون ورجاله ، فأخذتهم الدهشةُ والخيرةُ معا . أرادوا خيلاً تحملهم وتحمل أسلحتهم ، ولكن الخيل اختفت ، كأن الأرض انشقت وابتلعتها ، فمشى أكثرُ رجاله على أقدامهم ، يلهثون بما يحملون من ذخائر ومهمات .

أحبُّ أن يجدَ هو ورجاله الماءَ النقي ؛ ليطفئوا ظمأهم ، ولكن الناسَ ضنوا^(١) به عليهم ، فعانوا أشدَّ المعاناة من لبيبِ الظمأ في حرِّ الصيفِ القاتل . كان الرصاصُ ينطلقُ عليهم بين الحين والحين من مكامن^(٢) خفية ، لا يرونها ، ولا يعرفون قناصتها ..

تلقاهم الناسُ بروجٍ ساخطةٍ عليهم ، أو مستهزئةٍ بهم ، أو مصرةً على الانتقام منهم ، ولم يروا قطُّ بشاشةً في وجه^(٣) ، أو عوناً من أحد .

وصمتَ نابليونُ في مرارة ، وأسرعَ برجاله حتى يصلَ إلى منطقةٍ أكثرَ راحةً وأمناً ، فبلغَ دمنهورَ في الثامن من يولييه ، وفيها التقطَ هو وجنوده أنفاسهم اللاهثة ، ثم تحركَ إلى « شبراخيت » ، حيث كان مراد بك فيها بسفنه وفرسانه . وهناك ، وفي الثالث عشر من يولية سنة ١٧٩٨ دارت المعركة بينهما ، وكانت معركةً قاسيةً ، بددت حُلَمَ نابليون في التزهة التي كان يحلمُ بها ..

الريخُ هبَّت على سفينه التي كانت قد وصلت إليه ؛ فضربت بعضها ببعض ،

(١) ضنوا : بخلوا .

(٢) مكامن : مواطن خفية .

(٣) بشاشة في وجه : طلاقة فيه .

ودفعها نحو أسطول « مراد بك » ، فالتحم بها ، وغرقت بضعة سفن منها .
 الفدائيون طاروا كالصقور إلى أسطوليه ، وهبط بعضهم على سفنه ، وقتلوا
 غير قليل من رجاله .

الفلاحون هبوا بما يملكون من وسائل دفاعية ؛ ليساعدوا الجيش المصري ،
 ويجاربوا العدوان الغاشم .

وهنا اهتز نابليون ، على زهوه وجبروته ، ولكن رجاله شدّدوا هجومهم
 على أسطول مراد ، ووقعت منهم قتيلة على سفينة « التموين » المصرية به ،
 ففجرت لها ، وخاف بحارته ، فانسحبوا ، وبقي الفلاحون خلف رجال نابليون ،
 يقتلون ، ويمرحون ، ويخطفون ، ثم فرّوا خوفاً من نيرانه وقنابله .

تنفس نابليون نفساً طويلاً ، مسروراً بانهزام مراد بك وانسحابه ، وانطلق
 بمن معه في آثاره ؛ حتى أدركه في إنابة ، وقد نظم قواته بين النيل والأهرام ،
 ووضع أسطوليه على ساحل هذه البلدة ، واستعد للمعركة الفاصلة مع الطاغية
 الفرنسي ، وخرج الشعب لمساندة مراد بك ، بقيادة السيد عمر مكرم ، الذي
 حمل « البيرق » النبوي ، وهتف بأبناء مصر ، للجهاد ، ضد أعداء الوطن
 والدين .

ودارت المعركة ، وحارب مراد بك ، وانضم إليه في هذه الحرب إبراهيم
 بك زميله في السيادة والحكيم ، وبرز الشعب في المعركة ، يناضل بكل ما أوتي
 من قوة ، ولكنها كانت قوة متواضعة^(١) عاجزة عن هزيمة المعتدين .

وسكتت المعركة ؛ لتسجل هزيمة مراد بك ، وانسحابه إلى الجيزة ، بعد أن
 حرق الكثير من سفنه ، ولعلن فرار إبراهيم بك بفلوله^(٢) من البلاد ، والتجاءه
 إلى سورية ..

(١) متواضعة : ضعيفة .

(٢) فلوله : جنوده المنهزمين .

ودخل نابليون الجيزة في الثالث والعشرين من يولييه ، ووقف يدورُ يبصره في خشوع ، بين رجاله ، وبين الأهرام بجلالها وشمسها ، وقال لجنوده : « تقدموا أيها الجنود ! واذكروا أن أربعين قرناً تنظرُ إليكم من فوق قمم هذه الأهرام » .

وسار في صلف^(١) ، فدخل قصرَ مراد بك بالجيزة ، وجلسَ على عرشه ، وأمرَ رجاله أن يستولوا على كل ما تصلُ إليه أيديهم من نفائسه ووثائقه ومحفوظاته .. وفوجئ بين هذه المحفوظات برسالة السيد محمد كريم إليه ، وهي تدعو إلى محاربة الفرنسيين وإنقاذ مصرَ من شرهم .. وعند ذاك تحول شكُّ نابليون في هذا الرجل يقيناً ، وعرف أنه وطنيُّ له خطرُه عليه وعلى وجوده في مصر .

(١) صلف : زهو .

(٧)

موقف الفرنسيين من البطل الإسكندري

لعب الشكُّ في البطل الإسكندري بعقل نابليون ، وُحِيلَ إليه أنه لم يُخلص له ولا لرجاله .

ومرت الذكرياتُ بخاطره واحدةً بعدَ واحدة .. منذ كان في الإسكندرية ، وحينَ خرج منها في رحلة العذابِ إلى دمنهور ، وشبراخيت ، وإنبابة ، والجيزة .

مرت بخاطره ، وهو في مجلسه بقصرٍ مراد بك ، يجترها واحدةً واحدة .. ذكر مقاومة أهل الإسكندرية له ، وصلاية ابنها البطل السيد محمد كريم . استعادَ صورةَ هذا البطل ، يتسلَّمُ سلاحه منه ، وفي عينيه دهاءٌ وإصرارٌ على إنقاذِ وطنه . قفزت إلى ذهنه أشباحُ موتاه حولَ عمودِ السواري .. تراءى له منظرُ جنوده وهم في طريقهم إلى دمنهور ، يثنون^(١) من التعب ، ويلهثون من العطش ..

نهضَ فمشى خطواتٍ إلى شُرْفَةِ القصر ، ثم عاد إلى مجلسه ، وتمدَّدَ يجترُّ ذكرياته مرةً ثانية .. وعبسَ وجهه ، حين تراءت له صورُ القناصةِ يتصيدون جنده ، والفدائيين يقفزون كالشياطين على سفنه ، يُغرقون ، ويقتلون ، ثم ينصرفون سالمين . وانتهى به مطاف^(٢) الذكريات إلى معركة إنبابة ، وما دار فيها من صراعٍ في النيل ، وعلى الشواطئ ، ومن تفجيرٍ مراد بك لسفنه ، حتى لا تقعَ في أيدي الفرنسيين .

(١) يثنون : يتوجعون . (٢) مطاف الذكريات : طوفانها بذهن .

وقطع سلسلة ذكرياته ليسأل نفسه : من هذا الذى نظم مقاطعة الناس له ولرجاله وهو فى طريقه إلى دمنهور ؟ ومن الذى أوعز إلى القناصة أن يكمنوا لرجاله ، ليتصيدوا من يستطيعون منهم ؟ ومن الذى أثار القدائين ؛ لينقضوا على السفن الفرنسية فى « شبراخيت » فيغرقوها ، وعلى البحارة فيقتلوهم ؟ ومن ... ؟ ومن ... ؟

وصمت قليلاً ، ثم تذكر تقارير « كليبر » له ، وكانت كلها شكاوى وصراخاً من الروح الفدائية فى الإسكندرية ، وأمثلة دالة على قوتها ونشاطها . كان هذا القائد يعجبُ لجنوده الذين يخرجون من معسكراتهم ، ثم لا يرجعون إليها .. أو يخرجون بأسلحتهم ثم لا يعودون بها .. وكان دهشته تزداد حين يسمع أن كثيراً منهم ضاع ضحية نساء غرن بهم^(١) ، حتى انتقم منهم .. كما كان يعجبُ للتنظيمات الفدائية التى كانت تعرف حركات كتابيه خارج الإسكندرية ، وترصد لها^(٢) لتهم عليها ، وتقتل من استطاعت من رجالها . وهز نابليون رأسه ، وقال :

« يبدو أن « كليبر » كان على حق حين اتهم السيد محمد كريم بأنه كان وراء أكثر هذه التنظيمات ، وحين عزله من منصبه ، وقبض عليه ليرسله إلى واسترخى فى مجلسه ، والشكوك فى البطل تملأ عقله وقلبه ، وعيناه سابحتان فى القصر بما تدل عليه زخارفه ونقوشه وهندسته من ترف ونعيم . وفجأة فتح عينيه فى يقظة وتنبه .. لقد دخل عليه أحد رجاله الذين يحشون فى وثائق القصر ، وقال :

— انظر يا سيدى ! إنها رسالة السيد محمد كريم إلى مراد بك ! اعتدل نابليون ، وأخذ يقرأ الرسالة باهتمام ، ثم قال لنفسه بصوت مرتفع .

(١) غرن بهم : خدعهم . (٢) ترصد لها : تراقبها .

« وقعت يا كريم ! الآن وضَحَ كُلُّ شَيْءٍ ! أصبح الشكُّ حقيقةً ثابتةً ! » .
وأصدرَ أمرَه في الحالِ إلى « كليبر » ، ورجاله في الإسكندرية :
— أن يسارعوا ، فيقيدوه بالأغلالِ ؛ حتى لا يُفْلِتَ من أيديهم .
— أن يعتقلوا أتباعه ومريديه ؛ حتى يشلُّوا حركتهم .
— أن يقبضوا على خُدَمِهِ الذين يعرفون مواطن أمواله ؛ فقد كان من المعروف
عنه أنه غنيٌّ ، مفرطٌ (١) الغنى ، وأنه يحتفظُ بأمواله في بئرٍ ، لا يعرفها إلا
خواصُّ خُدَمِهِ .

كان « كليبر » قد نقلَ السيدَ محمدَ كريمَ إلى إحدى سفنِ الأسطولِ
الفرنسيِّ ، تمهيداً لإرساله إلى نابليون في القاهرة .. ومن هذه السفينة نُقِلَ
إلى « رشيد » ، وعجَّلَ « ميتو » حاكمُ « رشيد » بترحيله إلى القاهرة ، خوفاً من
التفاف الناسِ به ، وحفاوتهم (٢) بمقدمه ومُقامِهِ .. وفي اليومِ الرابعِ من
أغسطس كانَ على ظهرِ إحدى السفنِ للإسراعِ به إلى « بولاق » ، فوصل إليها
في عصرِ اليومِ الثاني عشرَ من أغسطس ، وهناك ، وبعد مغربِ الشمسِ كان
الجنُودُ يقودونه من السفينةِ إلى معتقله ؛ حتى يأذنَ نابليونُ في شأنه بما يشاء .

(١) مفرط الغنى : واسع الغنى .

(٢) حفاوتهم به : احتفالهم وترحيبهم بمقدمه .



البطل السيد محمد كريم يقوده جنود فرنسيون
بعد الغروب من سفينة إلى الشاطئ

محاكمة البطل واستشهاده

كان البطل مقتنعاً بنفسه ، راضياً بجهاده في سبيل بلاده .
 وكان يعرف أن القوانين العسكرية قاسية ظالمة ، ويعرف من ناحية أخرى
 أن الدفاع عن الوطن واجب كل وطني .. وأن المعتدين الغاصبين ربما يعقلون
 أو يعدلون ، فينظرون إليه نظرة وطني مخلص .. هكذا كان يفكر فتلعب به
 خواطره .

لم يطل به التفكير ، لقد سبق سريعا إلى محاكمة عسكرية أعدها نابليون
 له .. وكان المشهد رهيباً .. قاعة المحكمة فسيحة يغشاها^(١) الخوف ، بها
 منضدة طويلة ، يتوسطها الجنرال « ديوى » ، وعن يمينه وشماله أعضاء
 المحكمة ، بوجوههم الشقراء ، وشعورهم الصفر ، وعيونهم الزرقاء ، وقد
 انحنوا على المنضدة ، وتوقدت وجوههم بلهب الغيظ ، وتحولت زرقة العيون
 كذرة^(٢) ، تشع بالحقد والانتقام على الرجل المائل أمامهم ، أو الجاني في
 زعمهم ، وهو السيد محمد كريم ، وإلى جانيهم فرنسي ، يعرف العربية ، جاءوا
 به لترجم كل كلمة عربية ينطق بها هذا البطل إلى لغتهم .

وبدأت المحاكمة .. البطل مرفوع الرأس ، معتدل القامة ، يشع وجهه بنور
 الإيمان ، وتوحي ملامحه بقوة اليقين^(٣) بالله تعالى وقضائه .. ومع الإيمان
 واليقين نظرات ساخرة من دنيا الغرب التي تنادى بالحرية في بلادها ، وتنساها

(٢) تحولت كدرة : تحولت مسودة .

(١) يغشاها : يشملها .

(٣) اليقين : الاعتقاد الصادق .

خارج هذه البلاد ، وترغم أنها تدافع عن الحق والعدالة والإخاء ، وهي تقتلها ،
وتعيش على ضحاياها .

ونادى الحارس : محكمة ! فانتبه البطل ، وجمع خواطره وذكرياته ، ثم وجه
إليه رئيس المحكمة تهمة الخيانة العظمى للجمهورية الفرنسية ، وإثارة أبناء
الإسكندرية والبحيرة للثورة عليها .

أجاب البطل في كلمات هادئة مطمئنة :

— إن هذه الجمهورية هي التي محّلت مبادئها .. اغتصبت وطني ، وقتلت
الناس بلا شفقة ولا رحمة ، لا للذنب سوى أنهم يدافعون عن بلادهم ونسائهم
وأموالهم .. لقد حطمت سجنكم الرهيب (الباستيل) .. ثم ناديت
بشعاركم (١) : حرية . مساواة . إخاء ! ولكنكم سرعان ما تنكروا لهذا
الشعار .. فانطلقتم من بلادكم تسفكون (٢) دماء الشعوب ، وتنهبون خيراتها ،
وتصادرون حرياتها ، وتغتصبون حقوقها وحريتها ، وأصبح شعاركم :
الموت للشعوب ، والحياة لفرنسا ..

كانت كلمات البطل أشبه بالقيابل التي فجّرها في هيئة المحكمة ؟ فقد
كشفت عن نبل دفاعه الشرعى ، وانحطاط أغراضهم الوضيعة الحقيرة ،
فأصابتهم بهزة عنيفة ، لكن رئيس المحكمة تماسك ، وقال ، فيما يشبه
النصح ، له :

— إنك بهذا تعرض نفسك للإعدام !

فأجابه :

— إذا كان دفاعي عن بلادى ، وقول الحق سيقودنى إلى الإعدام فمرحباً به .
دهش رئيس المحكمة لهذه الشجاعة .. واستمر في المحاكمة ، فأخرج رسالة

(١) شعاركم : بما ترمزون به لأنفسكم . (٢) تسفكون : تريقون .

البطل إلى مراد بك ، وقال له :

— لقد عثرنا على هذه الرسالة في قصر مراد بك ، وهي بخط يدك .. وإثبات قوي ضدك .

فرد البطل :

— نعم ! إنها رسالتى !. وإذا كنت آسف على شيء .. فهو أنني اعتمدت على هذا المملوك المغرور الذى لولا غروره ما كنت اليوم ملقى بين أيديكم . وامتدت المحاكمة ، وفي النهاية صدر الحكم الذى يدل على أن الحضارة الغربية زيف^(١) وخداع ، وأن أهلها يعرفون الحرية في بلادهم ، ولكنهم في غيرها وحوش في غابة ، يلتهمون^(٢) من يستطيعون التهامه .. لقد قضت المحكمة على السيد محمد كريم بما يأتى :

— إعدامه رمياً بالرصاص .

— مصادرة ما يملك من مال وعقار .

— افتداء نفسه إذا شاء بثلاثين ألف ريال ، تؤدي قبل انقضاء أربع وعشرين ساعة .

قابل البطل الحكم بقلب ثابت ، ومرت الساعات الأربع والعشرون ، وهو مصر على عدم دفع الفدية ، مع قدرته على دفعها من ماله ، أو بإشارة منه إلى الشعب الذى يكبره غاية الإكبار .

(١) زيف : زائفة غير أصيلة . (٢) يلتهمون : يتلعون .



الزعيم السيد محمد كرم وهو مائل
بين أيدي أعضاء المحكمة

(٩)

إعدام الزعيم البطل

لم يَقْبَلِ البطلُ أداءَ الفدية ..

وكأنه كان يريدُ أن يضحّي بنفسه ؛ ليظَلُّ رفاته^(١) رايةً تُعلِنُ عن وحشية الطغاة المستبدين ، وعن حضارتهم الزائفة ، ولتظلُّ هذه الـراية تصرخُ في المصريين أن يحرروا وطنهم من كل أجنبيٍّ غاصب ، ثم إنه كان قوى الإيمان بالله تعالى ، وكان على يقينٍ من أنه إذا أرادَ له النجاة فلن ينالوا منه شيئاً ، وإذا شاء الموت فلن يُفْلِتَ منه ، ولو وقفت الدنيا كلها من ورائه .

وعرّف « نابليون » أنه أبى أداءَ الفدية ، فأحسَّ بأنه أمامَ رجلٍ عظيم وخطير^(٢) ، وكانت المصائبُ قد تكاثرت على الطاغية ، فأسطوله قد ضاع على يد الإنجليز ، والثوراتُ بدأت تهبُّ في وجهه ، فربط بينها وبين وجودِ هذا البطل ، فأرادَ أن يزيحه من وجهه .

ومع مَظَلِّع اليوم السادس من سبتمبر ظهرَ الزعيمُ الكبير .. ولكن على ظهر حمارٍ ، ويداه مكتوفتان ، والجنودُ الفرنسيون عن يمينه وشماله ، ومن بين يديه^(٣) ومن خلفه فريقُ الزمر والطبل ... وطافَ به العدوُّ شوارعَ القاهرة ، وهو يظن أنه أذله وأرهبَ غيره ، ولكنه أساءَ إلى نفسه ؛ لأنه ألهبَ سُخْطَ الناسِ عليه ، وجعل من قلوبهم مراجلَ^(٤) تغلّى للانتقام منه .

وساروا بالزعيم إلى ميدان السيدة زينب ، ثم سلكوا به شارعَ الصليبة ،

(١) رفاته : ما بقى من جسده .

(٢) خطير : عظيم الشأن .

(٣) من بين يديه : أمامه .

(٤) مراجل : أوعية .

ثم انتهوا به إلى ميدان « الرملة » بالقلعة .. وهناك وقفوا به في هذه الساحة الرحبية ، وتركوه وسطها مكبلاً مكتوفاً ، حيث انصب عليه رصاص الجنود المكلفين قتله من كل ناحية .

وسقط الرجل الشامخ صريعاً .. سقط وهو يردد اسم ربه ووطنه ، ومات مستريحاً ؛ لأنه أدّى حق وطنه عليه ، ودق أول مسمار حقيقى في نعش نابليون وحملته الفرنسية .

لم يكتف الطاغية الفرنسي بمقتله ، بل أمر برأسيه فقطع ، وطاف به الجنود في شوارع القاهرة ، والمنادى يصيح في الشعب العظيم بأعلى صوته :
— هذا جزاء من يخالف الفرنسيين .

وانتهى الطواف برأس البطل ، وظن نابليون أنه شفى نفسه منه ، وأطفأ لهيب غيظه .. وكان مريدو البطل بين خوف شديد من الانتقام ، ورغبة شديدة في دفن جثمانه الملقى في العراء .. فلما تمكنوا أن يقتربوا منه أعدوا له مقبرة بالقلعة ، غير بعيدة من مكان استشهاد^(١) ، ودفنوه بها .

وظن نابليون أنه أسكت الألسنة بمدافعه ، وقتل روح الجهاد بنيرائه ، ولكنه إنما قتل نفسه ، ودمر^(٢) وجوده في مصر .

فبعد مغادرة الزعيم المصرى للسفينة التى كان معتقلاً على ظهرها بالإسكندرية تحطم الأسطول الفرنسى ، إذ هجم « نلسون » بأسطوله عليه في « أبى قير » مع صبح اليوم الأول من أغسطس سنة ١٧٩٨ ، فحطمه وقضى على قوته ، ولو ظل الزعيم على ظهر السفينة التى كان عليها في ذلك اليوم لما ت غريقاً .. ولكن القدر كتب له النجاة من ميتة لا خلود فيها ، وأبقاه لموت موت الشهداء الخالدين .

(١) استشهاد : مقتله في سبيل وطنه .

(٢) دمر : حطم .

وفي اليوم الخامس من أغسطس بدأت المقاومة الشعبية لنابليون ، في الخانكة ، وعلى مقربة من القاهرة ، ثم في الصالحية بالشرقية ، فقاتل فيها الطاغية إبراهيم بك زميل مراد بك ، وكان في غاية الأسى لضياح أسطوله في أوى قير . وفي الثالث عشر من أغسطس شبت الثورات في بعض قرى البحيرة ، وأخذت تنتشر في أنحائها ، حتى خاف الجنرال « مينو » حاكمها التوغل^(١) فيها ، وكتب إلى نابليون يقول :

« إن التوغل في هذه الجهات محفوف بالمخاطر ؛ لأن معظم القرى في تلك البلاد محصنة » .

كانت هذه الانتفاضات الصغيرة تشتعل ثم تنطفئ ، ولكنها لا تنتهى ، وكانت كلها مصاحبة لمحاكمة الزعيم البطل .. فلما تمت هذه المحاكمة لم تنتظر القاهرة ، بل اندلعت ثورتها الكبيرة على الفرنسيين في الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ١٧٩٨ .. وقد اهتز رجال نابليون أمام شعبية هذه الثورة وصلابتها ، ولم يخدموها إلا بعد صراع عنيف .. وقد علم نابليون علم اليقين بعد هذه الثورة أن أملَه قد ضاع في خداع المصريين ، وأنهم مصممون في الدفاع عن بلادهم ، وأنهم إن تراجعوا اليوم فلن يتراجعوا غدا .

ظلت نيران المقاومة تلتهب هنا وهناك ، في الجمالية ، والمنزلة ، وديمياط ، وفي الصعيد ، وفي بنى سويف ، والمنيا ، والفيوم ، وأسيوط ، وقنا ، وجرجا ، وطهطا ، وأسوان ، وغيرها .. وتعب نابليون ، وتعب رجاله ، وتشقت قواهم هنا وهناك ، وهم يخرجون من معركة ، ليدخلوا في غمار^(٢) أخرى . ومن المعارك القوية التى خاضها نابليون معركة أوى قير البرية في الإسكندرية ؛ لبصد الجنود الأتراك الذين بعث بهم الخلافة لقتاله .

(٢) غمار : وسط .

(١) التوغل : التعمق .

وطالَعَ نابليون إحدى الصحف التي صدرت في العاشر من يونية سنة ١٧٩٩ ، فقرأ فيها خبراً رَوَّعَهُ (١) ، هو تعرُّضُ البلاد التي هزمتها فرنسا للخروج من يدها ، وهنا غادر نابليون مصرَ راحلاً إلى بلاده ، وترك جنودَه ، لثورة الشعب الثانية في مارس سنة ١٨٠٠ .. وفيها صنع القاهريون البارود والقنابل ، وهجموا على مركز القيادة الفرنسية في جِراء مَذْهَلَة .. وفي غمارها اغتال سليمانُ الخلبِيُّ « كليير » الذي عينه نابليون قائداً للحملة بعد رحيله ، وجاء بعده « مينو » الذي أعلن إسلامه ، وسمَّى نفسه عبد الله ، وتزوج مسلمة من رشيد ، ولكن ذلك لم يُغْنِ عنه شيئاً ، فترك مصرَ بمن معه ، وخرجوا منها إلى غير رجعة ، وفي أذهانهم أصداء الهزائم المرة التي قاسوها في هذه الحملة ، وعلى ألسنتهم أحاديث لا تنهى عن عظمة مصر ، وأصالة شعبها العظيم .

(١) رَوَّعَهُ : أفزعه .

ختام في كلمات

تقدّم الصفحات السابقة خلاصةً مركّزةً ، شديدة الإيجاز ، لحياة السيد محمد كريم : ابن الإسكندرية ، وبطلها ، ورائدها في مقاومة « نابليون » وحملته عليها .. وحياة هذا البطل كلّها دروسٌ تنطق بعظمته ، وتلقى بأضوائها على طريق الأجيال الناشئة ، فتهدّيها إلى ما هو أقومٌ وأفضل ، ومن هذه الدروس أنه : — كان عصامياً ، نشأ نفسه بنفسه ، وصعد سلّم العظمة بجهد ودأبه وإصراره ، فتحول من شاب صدمته الأيام في أبيه ، وتركته بغير مهنة ولا ميراث إلى أعظم حاكم ، شهده الإسكندرية ، واطمأنت للحياة في ظلّ حكمه .. وكانت درجات السّلّم عاليةً ومتعدّدة ، ولكنّه كان يقفُ فيها قفراً ، حتى انتهى إلى قمّتها .

— لم يلجأ في صعود هذه القمة إلى ما يلجأ إليه أكثر الناس من طبل وزمر ، أو ملق ورياء ، أو وسائل ملتوية وحقيرة ... وإنما كان عمادُه في صعودها ما امتاز به من نظافة الظاهر والباطن ، وطهارة اليد واللسان ، ومن العمل الجاد المخلص ، ومشاركة الناس في السراء والضراء^(١) ، وإسداء العون لذوي الحاجات منهم .

— ضرب أروع مثل في نضاله عن مدينته ووطنه .. وقف في وجه « نابليون » علانيةً بالإسكندرية ؛ حتى أرهقه ، وكبده^(٢) خسائر غير قليلة في الأرواح والأموال والعتاد^(٣) ، ثم خادعه فخيّل إليه أنه معه ، وحاربه سرّاً خارج الإسكندرية ، وعلى طول الطريق إلى القاهرة ؛ حتى حول حملته

(٢) كبده : كلفه .

(١) الضراء : الشدة .

(٣) العتاد : المعدات .

من نزهة كان يحلم بها إلى جحيم لا يُطاق .

— كان نموذجاً فذاً في وطنيته ... دافع عن مدينته في وقت خمدت فيه الوطنية بين سجون العثمانيين وسياط المماليك . وقف في وجه « نابليون » ، وقد خاف غيره من جبروته . غرّر^(١) بهذا القائد الذي أعاده حاكماً للإسكندرية ، واستحلّ التغرير به في سبيل وطنه الحبيب مصر . استعان بمراد بك على حربيه ، وهو لا يحب المماليك ، ولكنه يكره الفرنسيين أكثر منهم ، ويخشى خطرهم على بلاده . ظلّ يكافح بما يستطيع ، لا يفتر ولا يتوقف .

— قدّم روحه فداءً لمصر ، فكان أول شهداء الوطنية المصرية في العصر الحديث ، وأبى أن يساوم^(٢) عليها بالمال ، وأصر على أن يجعل من رفاته علماً يصرخ في الأجيال أن يصونوا للبلاد حريتها وكرامتها .

— بلغ بتضحيته ما يريد ؛ فقد كان « نابليون » يحاكمه وانتفاضات المصريين عليه لا تهدأ ، وقضى بإعدامه ، فهبت ثورة القاهرة الأولى في وجهه الطاغية ، وما زالت حتى خرج من مصر يتسلل^(٣) كما يتسلل الهاربون ، ثم كانت ثورتها الثانية ، وتبعها خروج الفرنسيين من مصر إلى غير رجعة .. ونمت روح الوطنية المصرية ، فتخلصت البلاد من الحكم العثماني والمملوكي ، ثم تخلصت من الاستعمار الإنجليزي ، لتعيش تحت رايات الحرية والعزة والكرامة .

(١) غرر : خدع .

(٢) يساوم عليها : يشتريها بمال يفديها به .

(٣) يتسلل : ينسحب في الخفاء .

رقم الإيداع : ٨٩ / ٤٩٥٩
الترقيم الدولي : ٥ — ٠٥٢٠ — ١١ — ٩٧٧

مطبوعات مكتبة مصر

عظماء قهروا اليأس

- | | |
|-------------------------|--------------------------|
| ١ — حافظ إبراهيم | ٨ — علي مبارك |
| ٢ — محمود سامي البارودي | ٩ — محمد فريد |
| ٣ — عباس محمود العقاد | ١٠ — جمال الدين الأفغاني |
| ٤ — أحمد عرابي | ١١ — محمد كريم |
| ٥ — طه حسين | ١٢ — عمر مكرم |
| ٦ — مصطفى كامل | ١٣ — عبد الله النديم |
| ٧ — سعد زغلول | ١٤ — الإمام محمد عبده |

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمان ١٠٠ قرش

Bibliotheca Alexandrina



0693079

